

ورود وأشواق !! . . .

تقديم

يقولون : البلاغة الإيجاز . . . ونعم ما يقولون ، فمن طريق الإيجاز مع الإحكام يأتي الإعجاز ، ولاتنا لنطالع في صحف العربية آيات بينات من جوامع الكلم فراها في إيجازها توحى بشتى الأفكار والمعاني ، وكأنما الكلمة الوحيدة المحكمة درة تآلق وتتوهج ، فهي لا تزال تبعث بأشعتها وأضوائها متجددة متلاحقة ، وقد تظالعت العبارة الوجيزة أو البيت الفذ فيخيل إليك من الإيجاز مع البراعة في التضمين والتلخيص والتركيز أن صوراً متتابعة تنفصل عنه في روعة وبراعة ، ولكل صورة معناها ومغزاها ، أو أن رموزاً كثيرة مطوية تومض وتكاد تبدى ، ثم تجمع من شملها لئلا ينهك حجاب المعنى . والأديب المتفنن قد يلجأ إلى هذا الطي والإيجاز لإظهار براعته ، أو السمو بصناعته ، أو شغل الناس ببضاعته ، أو توقي الأحداث من يتيته ، أو لغير ذلك من العلل والأسباب ، ومن واجب الذين يشغلون أنفسهم بالأدب وتاريخه وتحليله أن يعطوا ذلك اللون منه ما هو جدير به من بسط الحديث وتشقيق الكلام ؛ ففي ذلك كشف لمساثير كثيرة من شئون الماضي ، وتعميد لطرق البلاغة في القول ، وتعليم لوسائل الاستهداء بهدى أمراء البيان ..

أحمد الشرباصي — المدرس بالأزهر الشريف

أصيص ، وتناجها بتلك الأبيات الخوالد :
زنبقة في الآنيه ضحية الآنيه
جنت عليهما غربة الآ ر الأكف الجانيه
وبدلت من سعة الرب وة ضيق الباطيه
يسقونها من جرة بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأذك لا يشبه إلا شانيه
لم يبق من ملكي العري ض غير دار خاويه
وكننا ذابله عمنا قليل ذاويه
زال النعيم وفرغ لنا من حياة فانيه
هكذا ناجت السلطانة القديمة زهرتها حين انطفأ سراج
رجائها ، أو هكذا أرادها شوقي أن تقول بتعبير أدق ،
والشعر يطوى في القليل من اللفظ الكثير من المعنى ،
وكانما كانت بنفس الشاعر أو نفس السلطانة لواعج ومشاعر

في الصباح الباكر المشرق الوضاح دفعني قوة قوية
خفية إلى إدارة الحديث اليوم على النحو الذي سידار
وما استطعت حين دفعني تلك القوة إلا ما دفعني إليه أن
أتأني أو أتلبث لأعرف السر أو الهدف ، فقد كنت
كالمسحور يدفعه الساحر ، ومن يدري ، لعلى بعد أن
أستجيب لتلك القوة الخفية ، وأراجع ما أرادت من لون
الحديث ، أدرك ما هناك من سر ، ويدركه معي من يريد!
يرى المطالع لمسرحية مصرع كليب بتر ، التي نسجت
بردتها براعة الشاعر الفرد أحمد شوقي أن كليب بتر بعد أن
أدبرت عنها الدنيا ، وسد عليها اليأس منافذ الأمل ، وأصبحت
نصانع سقلة الجراس ، وقضت عليها الحظوظ العواثر
والجدود الخواصر بأن تذوق ذلة بعد عزة ، وضعفاً بعد
قوة ، وسجناً بعد حرية ، تنحني على زنبقة محصورة في

توثب لتستغيث في حال بنها وبين ماتريد . ومن يدري
 لعلها كانت تسير لو ترك لها المجال على النحو التالي من الحديث :
 هكذا الحياة حينما يقل فيها الخير ويشيع الشر، وحينما تنقلب
 فيها الأحياء إلى هوام ودواب ، وحينما ينسى الإنسان سيد
 المخلوقات مبادئه القويمة وأخلاقه السكرية ومنزلته العظيمة ،
 ويغدو بهيمة مهما أن تأكل وتشرب ، وتثور وتغضب ،
 وتظلم وتجحف ؛ هنا ترى القوى يستبد بالضعيف ، والباغي
 يحيف على الهزيل ، ترى الأثرة وحب الذات والأنانية
 والشهوة الذاتية الشخصية العارمة تستبد بالناس ، فلا يحفظون
 حقاً ، ولا يراعون عهداً ، ولا يصونون حرمة ، بل كل
 يقول : نفسى نفسى ، وبعدى يكون الطوفان ... وكل
 منهم يقبل أن يضحي بأهله ومواطنيه ، بل والدنيا جميعاً
 في سبيل رغبته وشهوته ولذته ، ولا تقتصر جناية هذه
 الأنانية ولا يسيطر طاغوتها من الأقوياء على ضعفاء
 الناس لحسب ، بل تمتد إلى النبات والجماد ، وهذه مثلاً
 زنبقة حزينة تراها سجيئة في آنية صغيرة بمكان محصور ،
 قد حرمت من انطلاق الحدود واستفاضة النور ، وما جنى
 عليها هذه الجناية الأليمة إلا الأنانية الفاحشة والأثرة
 الباطشة ، فقد امتدت الأيدي الأثيمة والأكف المجرمة
 إلى تلك الزهرة الحرة الطليقة ، التي كانت تنمو وتفتح
 وتفيض عطرها وشذاها هنا وهناك ، فانزعجت من جوها
 الطليق ودنياها الرحبية وكونها الواسع ، ثم قيدتها هنا بقيود
 الأسر والاستعباد ، فيا لها من مسكينة تستحق الرثاء
 وتستدر البكاء :

زنبقة في الآنيه ضحية الأنانية
 جنت عايتها غربة الأبرار الأكف الجانية !
 لقد كانت تلك الزنبقة بالأمس تستطيل « بعنقها »
 وتفخر برعمتها وتعالى في الفضاء بزهرتها ، وتأخذ مكانتها
 الحرة العالية فوق الربوة المرتفعة الواسعة ، تتمتع بحريتها
 فتستفيد منها . ثم هي في الوقت نفسه تنفع غيرها وتضفي
 من خيرها على سواها ، فجاءت الأيدي الآثمة فضنت عليها
 بهذه الحرية وتلك المكافة ، وحسدتا على ما هي فيه من
 نعمة وفضل ، كشأن الأقزام تماماً حينما يغيظهم طول
 العمالقة من الرجال ، فيفترون عليهم ويكذبون ، ثم انزعجتا
 تلك الأيدي من ربوتها أو سجنها في تلك الباطية الصغيرة

وذلك الإباء المحدود وذلك الإحصير الضيق ، وبذلك
 حرموها من ملك عريض كانت فيه ، ونعمة سابعة كانت
 تنقلب بينها ، تأخذ منها وتعطي ، وتنفع بها وتنفع غيرها ،
 كما حرموها من ماء العيون الجارية وسلسيل الجداول
 المتدفق ونمير الأنهار والقنوات ثم أرغموها على الشرب من
 جرة صغيرة ماؤها فيه معنى الضيق والسجن والاستعباد ؛
 وبدلت من سعة الربوة ضيق الباطية
 يسقونها من جرة بعد العيون الجارية

* * *

إيه أيتها الزهرة المسكينة، إننا شبيهةن وهماثلتان، أنت
 جارتى فى ضيق وسجنى ، نالك ما نالنى ، وألم بك ما ألم بى،
 ونحن غريبتان طريدتان هنا ، وكل غريب للغريب حبيب
 فكيف بهما حين تتحد ظروفهما وآلامهما وأحزانهما ،
 وليس ثمة من شأن يشبه شأنك إلا شأنى ، فأنت قد حرمت
 من ملكك العريض الواسع ، وحوربت فى حريتك
 وانطلافك ، وجيء بك إلى هنا لتذوقى الحرمان بعد
 الاستمتاع ، والخنول بعد النفع والارتفاع ، والذلة والنزول
 بعد العزة والارتفاع ، وكذلك أنا يا صديقتى السجيئة . .
 كنت بالأمس ملء السمع والبصر والفؤاد :

يموتون بى عشقاً ويشقون بالهوى
 فكم من حياة فى يدى ومات

ولكن الأقدار أراذلتى على الاختبار الشديد العسير،
 فذهب الأصدقاء وظهر الأعداء ، وتبدى الغدر وفر
 الوفاء ، وذهب عني ملكي وسلطاني وحاشيتي وأتباعي
 وعشاقى وصولتى، وصرت أسيرة سجيئة حقيرة ، ليس لها
 من ملكها ولا من سلطانها إلا هذه الدار الخاوية التى لا تغنى
 ولا تسمن من جوع ، فيألى من شقية يمد طول إسعاد :

تعثر حظى بعد طول سلامة
 وأقلع نجمى بعد طول ثبات
 ومن يمشى فى ورد الأمور وشوكها
 يعد الخطأ أو يحسب العثرات

أرأيت أيتها الزنبقة الحزينة المسكينة كيف ساقط إليك
 الأقدار صديقة لا تشاركك فى المكان والزمان لحسب ،
 بل وتوافقك أيضاً فى الأحزان والأشجان وسوء المصير :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي
غير أن لابقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب

كان في الناس غير أنك فاني !

هذا هو العيب الذي لا عيب بعده يا أختاه، وهذا هو
النقص الذي لا يمكن تلافيه، وهذا هو المصير المحتوم
المنذر المذكر المحذر المؤدب، الذي يجب أن نعتبر به كثيراً
وأن نتدبره طويلاً، حتى نخفف من غلوائنا، ونقل من
كبريائنا، ونحسن الاستعداد لغدنا، ونحاسب أنفسنا قبل
أن يحاسبنا سوانا، فذلك أنفع لنا وأجدر بنا ...!

نحن زهرات في هذه الحياة يا أختاه، كل زهرة منها
ستذبل وتذوى بعد قليل، وسيزول عنا وعن سوانا
أيضاً كل هذا النعيم، وسنفزع من هذه الدار العاجلة الفانية
لنتلحق بحياة الخلود والبقاء، فإما الفردوس المقيم، وإما
عذاب الجحيم :

وكلنا ذابلة عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيه !

يا قارئ .. أفهمت ما يراد ؟.. قد تقول إنك لم تفهم،
فأقول لك : وأنا أيضاً لم أفهم ؛ فقد كنت كالسحور
يدفعه الساحر ...! فعدرة إليك ! .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

◆ المآرب اليسيرة لا تسمى طموحاً، ولكن
الطموح هو الغايات الشاقة البعيدة، ففاضل
وأنت والظلمة، وحارب وأنت ملقي على الأرض
ثم مت أشنع ميتة، فإني لن تموت أبداً .
(بيتشر)

ووضع الندي في موضع السيف بالاعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندي
(المتنبي)

يا جارتا شأنك لا يشبه إلا شأنه
لم يبق من ملكي العري عن غير دار خاويه
إيه أيتها الزنبقة الأسيرة... لشدة ما تثيرني الذكرى
وتقتلني اللواعج . لقد كنت بالأمس ملء السمع والبصر
والفؤاد، تصاغ لي أكاليل المديح وطاقات الثناء، ويركع
على قدمي الشيوخ قبل الشباب، وفيهم من يحيني قائلاً :
سلام السماوات في مجدها على ربة التاج ذات الجلال
تمنيت رأسين لا واحداً إذامست الأرض هام الرجال
أطأطأ رأساً لمجد النبوة وأخفض رأساً لمجد الجمال
ولقد كانت الجنود لي، والبنود من حولي، أسمع
الأنشيد وأنشئ منها فأردد :

هو الله فشيدي والمغنون جنودي
والخاريق التي تحف ق من بعد بنودي
ولديها فارس مل ثم شاكي الحديد
يتراعى في عنان ال جوا كالبرج المشيد
هو انطيوخ ذخري وطريقني وتليدي
أيها البتان هذي ليلة العيد السعيد
صلياً مثل صلاتي واسجداً مثل سجودي

ولقد كنت غارقة في النعيم، أمر فأطاع، وأشير فأجاب
وأتحكم فلا يعارضني أحد، وأتمنى فيكون ما أتمناه، أما
اليوم فقد ضاع الملك وخضبت الإمارة، وأبدلني الدهر
خفضاً بعد رفعة، وذلاً بعد عزة، فأصبحت أسيرة وقد
كان الملوك الصياد يمشون في ركاني، وسقاني الدهر كؤوس
الصواب والعلقم، وطالما تمنى الدهاقين أن يقاسموني شراب
لذاقي وخمر مسراتي !! آه ما أمر الذكرى على العزيب
الذي ذل أيتها الزنبقة الحزينة .. يا ذات البأساء مثلي ! .

لقد كان فيما مضى أيتها الزنبقة الحزينة سلطان عربي
أموي، اسمه سليمان بن عبد الملك، وكان هذا السلطان
وسماً جميلاً فارح القامة منسق الأعضاء جذاب المنظر،
تفجر منه ينابيع الشباب، وتطلع هذا السلطان يوماً إلى
المرأة فأعجبه شكله وأسرته جماله وازدهته وسامته فقل
يخاطب نفسه : أما الخليفة الشاب !.. ثم التفت إلى جارية
له كأنه يسألها عن رأيها في شبابيه وجماله، فقرعت سمعه
بالنذر الخفي الجلي، وقالت تخاطبه :